OPEN ACCESS
Journal of Semitic Religions
ISSN (Print): 2958-7514
ISSN (Online): 2958-7522
https://jsrpk.com/index.php/Journal

الصورة الإيجابية للآخر عند شعراء سورية في بدايات القرن العشرين

The Positive View of the Other Among Syrian Poets in the Early Twentieth Century

Dr. Ghassan bin Salih Abdul Majeed
Assistant Professor, Faculty of Arabic, IIUI, Islamabad ghassan.abdulmajeed@iiu.edu.pk

Dr. Muhammad Ahmad Nashi
Assistant Professor, Faculty of Arabic, IIUI, Islamabad
muhammad.nashi@iiu.edu.pk

Abstract

This research monitors the positive view of some Syrian poets towards the other; that is, towards what is not Arab, where a duality arose that the long history of humanity - with its different nations, multiple cultures, and divine laws, and the conflict that arose between those nations, kingdoms, and empires - loaded with many negatives represented in preconceived positions and ready-made judgments about the image of this or that nation, or followers of a religion or intellectual school, and looking at it in a way that carries a lot of distortion and misrepresentation of the image of the other. This image may have turned into a fanatical tendency that nullifies the other and does not recognize him and may even be hostile to him simply because of his ethnic or religious affiliation. Since the beginning of the twentieth century, poets in various Arab countries have lived through a period full of difficulties and sharp transformations in the history of Arab countries. Political anxiety and unrest were great during the last stages of the Turanian rule, which resulted in a cognitive, civilizational and cultural decline in the entire Arab region. This decline and setback did not stop with the advent of Western colonialism, but rather its pace accelerated more than before, so that ignorance and backwardness prevailed, and Arab countries became a breeding ground for colonial powers and their growing influence. Here, unfortunately, the image of the other was often poorly reflected, but the concept of humanity in all its comprehensiveness and breadth began to oscillate in the minds - the minds of intellectuals and the public - between the image of the advanced person who should be emulated and the image of the colonial occupier who plundered the land and stole the goods, and developed some of the countries he occupied for his own benefit. It was natural for poets to defend their nation and to mobilize the Arabs to revolt against tyranny, However, despite this deteriorating situation that the Arab countries experienced, the poets of Arabism in general and the Levant in particular did not express any discriminatory positions or tendencies tainted with racism towards other peoples, but rather acknowledged the human unity that unites all people.

CC BY

Keywords: Syria, Poetry, Positive Vision, Early Twentieth Century

مقدمة:

يرصد هذا البحث نظرة بعض الشعراء السوريين الإيجابية إلى الآخر؛ أي إلى ما هو غير عربي، حيث نشأت ثنائية حمّلها التاريخ الطويل للإنسانية – بأممها المختلفة، وثقافاتها المتعددة، وشرائعها السماوية، والصراع الذي نشأ بين تلك الأمم والممالك والإمبراطوريات– كثيرًا من السلبيات المتمثلة في المواقف المسبقة والأحكام الجاهزة عن صورة هذه الأمة أو تلك، أو أتباع دين أو مذهب فكري، والنظر إليها على نحو يحمل الكثير من التشويه والتحريف لصورة الآخر. وربما تحوّلت هذه الصورة لتصبح نزعة عصبية تلغي الآخر ولا تعترف به، بل قد تناصبه العداء لمجرد انتمائه العرقي أو الديني.

ولعلّ هذه النظرة التي تفتقر إلى أدنى احترام للآخر، بل تعمل على إلغائه، إنّما تتجسّد في نماذج صارخة تتمثل في العقيدة الصهيونية التي ترى أنّ اليهود هم شعب الله المختار، وأنّ ما عداهم من البشر ليسوا سوى حيوانات مسخرة لخدمة هذا الشعب المنتخب، ولا شك أنّ في هذه النظرة المتعالية ما يجسد قمة الامتهان للآخر.

وبعد أن وصلت البشرية إلى القرن العشرين، الذي كان من المفترض أن يشهد العالم تقاربًا غير مسبوق بين شعوبه وأممه، خصوصًا بعد الثورة الصناعية التي كانت تبشر ببزوغ شمس العلم التي كان من الطبيعي أن تبدّد كلّ جهل وظلمة وتخلف في مجالات الحياة كلها، نجد أنّ دعوات إلغائيةً بالغة التطرف والتعصب كانت قد بدأت بالظهور في ظل هذه الثورة ومنجزاتها العلمية والصناعية المتقدمة التي تحولت ببعض أصحابها إلى التوجه نحو النفعية المحضة والمادية المطلقة الطاغية، فأنتجت تيارات عنصرية متطرفة تجلت بوضوح في النازية وشقيقتها الفاشية، اللتين سمح أصحابهما لأنفسهم أن يضعوا تصنيفات للأمم والشعوب على أساس عرقي عنصري، فيصعدون بأمتهم نحو قمة الهرم الإنساني، ويلقون بالآخرين إلى الحضيض!

على أنّ التاريخ البالغ العمق للحضارة العربية الإسلامية لم يشهد نشوء مثل تلك الدعوات الناشزة والنزعات الإلغائية للآخرين، حتى في أكثر مفاصل هذا التاريخ وتحولاته حساسية وتوترًا، بل حتى في عصور الانحدار والتخلف. وكيف لا تكون الحال كذلك في ظلّ المجتمع العربي الإسلامي الذي تَمثَّل الدعوة الإنسانية التي أطلقها القرآن الكريم للأخوة الإنسانية، قال تعالى:{ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم** }سورة الحجرات الآية:**13**.

فلا أدلّ من هذه الآية الكريمة على إنصاف الإنسان الآخر والاعتراف بوجوده وخصوصيته، وهي تعبر عن تلك القيمة الإنسانية عند البشر جميعًا، كما أنها ترى الاختلاف بين الشعوب والأمم إنّما هو بهدف التعارف والتعاون والتشارك في الهدف الذي خلق الله الإنسان

لأجله، والمتمثل في إعمار الأرض وبناء الحضارة وهذا هو الاستخلاف الحقّ.

الصورة الإيجابية للآخر عند شعراء سورية في بدايات القرن العشرين:

منذ بداية القرن العشرين عايش الشعراء في مختلف الأقطار العربية مرحلة كانت حافلة بالصعوبات والتحولات الحادّة في تاريخ البلاد العربية، فالقلق والاضطراب السياسي كان كبيرًا في أثناء وجود الحكم الطوراني في مراحله الأخيرة التي أفرزت تراجعًا معرفيًا وحضاريًا وثقافيًا في المنطقة العربية بأسرها، ولم يتوقف هذا التراجع والانتكاس بمجيء الاستعمار الغربي، بل تسارعت وتيرته بشكل أكبر من السابق، ليسود الجهل والتخلف، ولتصبح البلاد العربية مرتعًا لقوى الاستعمار ونفوذها المتنامي.

وهنا، ومع الأسف، تجلت صورة الآخر على نحو سيّئ في كثير من الأحيان، لكنّ مفهوم الإنسانية بكلّ شموليّته واتساعه أخذ يراوح الأذهان – أذهان المثقفين والعامة – بين صورة المتقدّم الذي ينبغي أن يحتذى به وصورة المحتل المستعمر الذي نهب الأرض وسرق الخيرات، وعمّر بعضًا من البلدان التي احتلها لأجل مصلحته الخاصة، وكان من الطبيعي أن يدافع الشعراء عن أمتهم وأن يستنهضوا العرب للثورة في وجه الطغيان، كونهم الممثل لضمير الأمة ووجدانها.

ولكن وعلى الرغم من ذلك أمام هذه الحال المتردية التي عاشتها البلاد العربية، فإنّ شعراء العروبة عمومًا والشام خصوصًا لم يصدروا عن أية مواقف تمييزية أو نزعات مشوبة بالعنصرية للشعوب الأخرى، بل اعترفوا باللحمة الإنسانية التي تجمع الناس كلهم. ومن أبرز مظاهر تلك النظرة الإيجابية الافتتان بالعناصر الجمالية الحسية والمعنوية للبلاد الأوربية من مثل قصيدة (في غابة بولونيا) لخير الدين الزركلي التي تغنّى فيها بجمال طبيعتها وحسن نسوتها الباريسيات فقال:

ضحكت لي غابات بولونَ وأرتني الجنان تلك المغاني
يومًا زانه لؤلؤ من الغدران
فرش السُّندسُ البهيج بساطًا أيّهنَ الأشهى لقلب العاني
وتبارت أزهارها والغواني للمحبّين في حماها التداني (1)
هي باريسُ يا أميمةُ حِلٌّ

وممّن وصفوا جمال باريس قسطاكي الحمصي بعد زيارته لها عام 1913م في قصيدته (هل من مطمع بعد المرفع) التي منها قوله:

غفوتُ حتى لا أريد جدّدتَ لي يا دهر عهد
العتابْ الشبابْ
لعب وضحك مثلما نبتغي مع ألف خود دون لوم وعاب (2)

وقصيدته (الخلوة أواخر خميس في باريس) التي تساءل فيها:

أهي الجنة التي وعد الله بها المتقين أم باريسُ

أم هي الحورُ في مطـارف خزّ ... أم غوانٍ بين الريـاض تميس
أم هي الظبيـات أم غـاويـاتٌ ... سامرات يغري بها إبليس (3)

واستجلى نفر من الشعراء السوريين وقتئذ صور البطولة والفداء لدى أبطال من غير العرب ضدّ أعدائهم، وربطوا بينها وبين بطولات العرب، ولاسيما السوريين؛ فقد أكبر خير الدين الزركلي بطولة (الديدبان) الحارس الفرنسي، وأعجب بموقفه الإيجابي حين ضحّى بنفسه في سبيل إنقاذ جيش بلاده في أثناء الحرب العالمية الأولى من غدر أعداء قومه وبطشهم، فقال:

بات يرعى الدُّجى وحيدًا فريدًا ... حاضـر القلب مصـغيًا يتفكّرْ
لم يَرُعْـهُ في ظلمـة الليـل إلا ... وقْـع أقدام داهمٍ يتحـذّر
فيلق إثر فيلق جـاء يسـعى ... في ظلام الليـل البهيم تنكّر
نبّه القوم فاسـتطاروا خِفافًا ... صـاح فيهم فاسـتقبلوه، فأنذَرْ
فـإذا بـالخيـام لا حيّ فيهـا ... وإذا الـديـدبـانُ لم يتقـهقر

وحين سأله الأعداء عن قومه رفض أن يدلهمّ عليهم وخوّف الأعداء من عبور النهر، وألقى بنفسه فيه واختفى عن الأنظار وفضّل الموت على خيانة قومه:

خـاطـب النفس وهو في ... ء وفي قلبه اللظى تَتَسَعَّرْ
لـجـج الـمـا ... وابتغوا معشـري بكلّ مضـمّر
إنْ أردتِ البقـاء خـاضـوا إلينـا ... ء فكفّوا أو تابعوا السير في البر
أو أردتُ الفنـاء هـالهم المـا ... إنمـا المرء من يموت فيُـذكَر
حبّذا الموت في سـبيل قومي ... جثـة غـالهـا الحِمـام المقـدّر
وطفت فوق صـفحة الماء منه ... خلّـدت ذكره العصـور مُعَمَّرْ
أنـقـذت آلَـهُ ورُبّ شـهـيـدٍ ... بـالـدم الحرّ قومـه حين يُهْدَرْ (4)
هكـذا فليكن أخو البـأس يفـدي

واتخذ عمر أبو ريشة من (جان دارك) مثلًا أعلى للبطولة، حين جعل من ثباتها على موقفها وقناعتها بحقّ بلادها في الحرية والاستقلال رمزًا للفداء والتضحية إذ آثرت أن تُحرَق على أن تتهاون وتستسلم لإرادة الأعداء فقال:

مضـت الليـالي... ... الأحلام في أجفـان
مـثـلـمـا ... نـائـمْ
فـإذا البـتـول عـلـى جـواد ... مثـل جلـد الليـل فـاحم
وأمـامـهـا عَـلَـمُ الـبـلاد * مموّج الجنبـات بـاسـم**
ووراءهـا جـيـش مـن ... الفرسـان مشـدود العزائم
نـادت بفيلقـهـا البـتـولُ ... وهزّ سـاعـدهـا المهنّـدْ
وعَـدتْ إلى حرم الجهـاد ... السـمح بـالعزم الموطّـد

فتلاحم الجيشـــان فـاندلع الـلـظـى والـهـول أرعـد
بـدت الـبـتـول كـمـا بـدا *** من كوّة الظلمـاء فرقـد**

نصـــرٌ على نصـــر أقضّ مضـــاجع الأبطـال ذعرا
حتى إذا الوطن الأســـير بـدا مـن الأعـداء حـرّا
هوت البتول المســـتميتـة فـي يـد الأعـداء غـدرا
ومشـــوا مجوسًـــا يحملون بـتـولـهـم لـلـنـار نـكـرا[5]

وعدّ خليل مردم بك الفتى الإيرلندي (ماك سويني) حاكم كورك حين أضرب عن الطعام ورفض الشراب حتى مات احتجاجًا على التعسّف البريطاني، فقال:

أبى رقّ الحياة فمات حرّا وأبلغ نفســه في ذاك عذرا
وأقســـم لا يكون حمـاه نهبًـا مـبـاحًـا أو يـموت طوى فـبـرّا
بميتتــه رأى إحيـاء شـــعـبٍ فـأيقن أنَّ بعد العســـر يســـرا
فلو في كلّ شـــعبٍ مثل (ماكٍ) لمـا كـانـت خطوب القوم تترى
ويـالـك ميتًـا أحيـا شـــعوبًـا وشـــاد لهـا على الأيـام ذكرا
بنفســـي أنـت من هـاد إمـام أنـار لـمـدلـج الأقـوام فـجـرا[6]

وتتقاطع التضحيات الصادقة عند المناضلين الشرفاء كلهم، وخير دليل على ذلك (ماك سويني)[7] الذي فضّل الموت على عيشة الذلّ والهوان، فكان أنموذجًا وطنيًا يحتذى بحقّ، كما قال بدوي الجبل:

أحقًـا مـا روت عنـك الرواة تُرى أم في حـديثهمُ هنـاتُ
غـلـبـتَ الـموت فـيـه وذاك أمرٌ ســـــتكبره القـــرون الآتيات
وهوّنتَ المنـــــــون لشاربيها فـلا ألـم هـنـاك ولا شـــكـاة
وأرخصـت الحيـــــاة فيا لكنز أزالته المقاديـــــم الأبـــاة
بســـطت يديك بســـطـة أريحيٍّ فكـانـت من عطـايـاك الحيـاة
بلغـت من العـدا بـالموت مـا لم تُبَلّغْهُ الســـــيوف المرهفات
رأوك تـهشّ في وجـه المنـايـا وحولـك في الحيـاة الطيبـات
وتبســـم للمنون وقـد تســـنّـت لو اخترت النجـاة لـك النجـاة
وتـقـتـبـل الـردى ظـمًـا وجـوعًـا ليـذكو الغرس بعـدك والنبـات
فـأكـبـرك الـعـداة وربّ حـرٍّ تغنّـت في بطولتـه العـداة[8]

فالمناضل يعلم أنّ التضحيات والبطولات الفردية هي دروب ومفاتيح للثورات الجماعية ولنصر الشعوب.

والحق أن تمثّلات "الآخر "ليست غربية وحسب؛ أليس العالم متعدّد الثقافات والإثنيات؟! وهل يمكن اختزال مصطلح "العالم" بـ "الغرب" ؟ طبعًا لا.

لكنّ سيرورة العالم الحديث وبزوغ شمس الغرب بوصفه مدنيّة متقدّمة تعرض لمشروعها الحضاريّ الخاصّ ولنظرتها للكون والحياة، قد أملت على كثير من مثقفينا توجّهًا أحاديًّا يُعنى فيه بـ "الآخر"؛ أي الغرب الأوربي والأمريكي، ولا يلتفت إلى حضارات عريقة أخرى من مثل الصين، والهند، وأمريكا اللاتينية..إلخ.

وفعلاً، لم يشمل هذا جميع أدبائنا ومثقفينا، فهذا الشاعر عمر يحيى يرى في الهند روحه الشرقية المعايشة والملاصقة للشرق العربي. كيف لا؟ وقد جمعنا تاريخ لا يمكن أن يطويه النسيان، ولئن رأى بعضهم في باريس حضنًا للعربي الراغب في الانفتاح على العالم، فإنّ في الهند حضنًا آخر يلامس الهمّ العربي بقوّة ولا يدير له الوجه الاستعماري الكالح الذي يوصف به بعض الأطراف الغربية. كيف لا؟ وهو ذائقٌ مرارة الاستعمار ذاتها وهو يخضع للإنكليز، قال الشاعر عمر يحيى في قصيدة له سنة 1930م:

لســـــت في بـاريز، بـاريز لمن ... يـألف اللهو ويهوى المترفين
أنـا في الهنـد أرى الشـــرق ومـا ... في حنـايـاه من الـداء الـدفين
ضــاق صــدر الشــرق عن أبنائه ... وحوى من قـادة الـغرب مئـين
أيّ ربع من حمى الـــــشـرق بلا ... ظالم يؤذي وشـــعب مســـتكين
كـلمـا ردْنـا مكـانًـا كشّـــروا ... لــك عن أنيــاب ملاك أمين[9]

ولم يفرّق عمر يحيى بين العربي وغير العربي في قصيدته (إينكولت) التي منها قوله:

ولا فرق في تكريم مَنْ كان عالمًا ... أكـان غريبًـا أم قريبًـا تلازمـه[10]

لقد ثمّن شعراء سورية في تلك المرحلة كل موقف إيجابي للآخرين، فمن قبل أكبروا دفاع الأتراك العثمانيين عن البلاد الإسلامية التي كانت تحت سيادتهم بوصفهم خلفاء للإسلام، من مثل قول الشاعر شفيق جبري في قصيدته (في ظلال ابن كرمة هانئ) التي رثى فيها أحمد شوقي، وذكّر بإشادته بالفتوحات العثمانية لنشر الإسلام في وسط أوربة على خسرانهم معركة (أدرنة) أمام البلغار عام 1921م:

يا صرخةً في شتات التُّرك صادقةً ... تكـادُ تُسْـــمع فـي الـتُرب
بكيتَهمْ في مصـــاب هـدّ جـانبهمْ ... الســـــــلاطـــــيـــــنـــــا
وصـــفت آثارها فـــــي أخت أندلسٍ ... على أدِرْنَـةَ يضـــنيهم ويضـــنينـا
وصفًا يُهجّن أهل الغرب تهجينا [11]

وحين قام الغرب بحروبه ضد العثمانيين لاسترجاع بعض الدول الأوربية، اندفع خير الدين الزركلي – في قصيدته (في حرب البلقان) التي نشبت عام 1912م – بحماسة دينية، ودعا للوقوف إلى جانب الأشقاء الأتراك في وجه الغرب المستعمر:

يـا خليليَّ لا تلومـا أبيًّـا شـــاقه ذِكرُ عزَّة الآباء
هـذه الحرب والكتـائـب أُلَّـبٌ أفعمتْ كَثرةً فســيح الفضـــاء
أين شــوسُ الأهرام؟ أين فَروقٌ؟ أين أســـد الشـــام والزّوراء؟
نُصـرةُ الحقّ والمواطـــنِ تدعو للوغى كـلّ أحمسٍ أبّـاءِ؟ (12)

وتجاوز شفيق جبري في قصيدته (ثورة قريش) ذكريات الماضي والحقد والضغينة على ما فعله الأتراك الطورانيون حين أعدموا المناضلين العرب في السادس من أيار 1916م، وأظهر روابط الأخوة واللحمة الدينية حين استقبلوا الملك فيصل بعد دخول الفرنسيين سورية:

رَجَعْتُ طرفي إلى الماضي فروّعني يوم بجلَّقَ فتَّـاك بـأهليهـا
أكـاد أنســـى عـلـى الأيـام روعـتَـهُ لولا تهـاويـلُ من ذكرى أنـاجيهـا
وكـيـف أبـعـثُـهـا والـتـركُ جـيـرتُـنـا ما بيننا اليومَ أضـــغانٌ نقاســيها
فنـحـن فـي الشـــرق إخوان تؤلّفنـا هذي الجراحُ وقد ســـالت دواميها
والـيـومَ أنـقـرةٌ مـاجـت مـواكـبُـهـا بفيصـل واحتفى بالعُرْب غازيها (13)

وقد أدّى انبهار نفر منهم واندهاشهم بحضارة الغرب ومخترعاته الحديثة إما إلى تشويه صورته، بسبب ممارسته بوصفه غالبًا للمغلوب أو بسبب مخترعاته التدميرية وتصرفاته غير الأخلاقية وغير الإنسانية، التي مارسها في أثناء احتلاله وبعده أو إلى تمجيده وتقليد أفكاره وطروحاته، ولاسيما الشعراء الذين ارتحلوا إلى الغرب للسياحة أو للعمل أو للدراسة، فالذين وجدوا أنها طريق الخلاص من الواقع العربي المرير على المستوى الفردي والجماعي.

لقد رأى محمد البزم أن الغرب استمدّ الحكمة والعلم من الشرق، لكنّه حرّفها عن غرضها بحسب أهوائه ومصالحه، وتتسع هذه النظرة التاريخية للكثير من القول :

ما أرى ذا الغرب إلا ناشـــئًا فطنًا لقّنه الشـــرقُ الفنون
أودع الـحـكـمـة طـوعًـا قـلـبَـهُ وَغـذاهُ بِـلـبـانِ الـمـرســـلـيـنْ
أخـذ الـعـهـدَ عـلـى أن لا يُـرى حَـدِبًـا إن رابـه الـدّهر الخؤون
فـجرى والـعـلـمَ شـــأوًا، وانـثـنـى زائـرًا يـحـمـل زهْـوَ الـفـاتـحـيـن
أُنْسِـــيَ العهـدَ، ولم يعطف على من هم الحكمة، شأن السادرين (14)

أما النماذج التي قدّمَتها الشعوب الأخرى في النضال لأجل الخير والعدل والتلاقي الإنساني فهي كثيرة تكاد لا تحصى، وهي تساعدنا على توضيح صورة الآخر الإيجابي، ها هو ذا خير الدين الزركلي يعتصره الألم لوفاة محمد علي الهندي في قوله:

مات خطيب الشـــرق، مات تعلَّم البيـان منـه البيـان
الـــــــــــــــــذي وأهله في مضـــض واضـــطغان (15)
الشـــــرق فـي تـفـرقـةٍ مـرَّةٍ

وسنكتفي هنا بذكر موقف واحد لنفر من الشعراء الذين عبّروا عن مشاعرهم نحو بلاد

الشرق الهند والصين وزعمائهما بوصفهما رمزًا للشرق إزاء الغرب الأوربي، وكذلك حين زار (طاغور) شاعر الهند مدينة دمشق عبّر عدد من شعراء سورية عن مشاعرهم من مثل الشاعر أديب التقي الذي رحّب بشاعر الهند العظيم طاغور في قصيدته (بين الشرق والغرب):

حنانك عهدَ الشرق هل أنت بما ينبغي أم ليس تحنانا
راجع يُقضى
أ أحرار أهل الغرب أموا بلادنا ترونا كرامًا لا يُسِرُّ لكم بغضا
تعالوا إلينا لا لفتح وغارة لتستعبدوا حرًّا وتستعمروا أرضا
ولكن لترتادوا حقائق شرقنا وتستمعوا للقلب عن كثب نبضا (16)

وفي رثاء الشاعر منير الكلاليب للزعيم الهندي (المهاتما غاندي) دليلٌ على ذلك التوجه الإنساني، إذ رأى في هذا الزعيم العظيم الذي خلص بلاده من الاستعمار والتفرق في آن مصلحًا يغار على أمته، ونموذجًا ورمزًا خالدًا لشعوب الأرض كلّها في هدايتها للتحرّر من قيود الظلم والتشتت، قائلاً:

الهند والدنيا وباكستان تبكي عليك فدمعها هتّانْ
والمسلمون بكل دار مأتمًا نصبوا وفاضت فيهم الأحزانْ
يا واحدًا جمع الشّتات برأيه ودعا الهنود إلى الوئام فدانوا
غبطت بك الأمصار شعبك واشتهوا لو كان مثلك فيهم إنسانْ
والنّاس قد قدروا صنيعك قدره إلا كنودًا طبعه النكرانْ

ويندّد الشاعر بيد المجرم التي امتدت إلى المهاتما فلم تقتل إنسانًا واحدًا وإنّما قتلت به الشعوب المظلومة كلَّها:

حسب الذي اغتال بالعار باء وحاطه الشنآن
(المهاتما) أنّه أردى شعوبًا عمّها العدوان
لم يُرْدِ شخصًا إذ رمى لكنَّه برصاصهم واستفحل الطغيان
ولكم رمى المستعمرون بلاده وسلاح غاندي الصوم والبرهان
السجن والبارود كان سلاحهم قد شقّه غاندي ونعم الشان
يا معشر (الهندوس) سيروا بالذي قدح الذي ينتابكم أعوان(17)
المسلمون وأنتم (والسيخ) في

ولم يكتف الشعراء بذلك بل دعا نفر منهم إلى الإفادة من أخلاقيات شخصيات شرقية عظيمة وقيمها فاستلهموها في قصائدهم، هذه الشخصيات كلها تكون مثلاً يحتذى به، فقد استحضر نسيب عريضة في قصيدته (المسافر) التي وجهها إلى صديقه المسافر إلى الصين شخصية حكيم الصين (كنفوشيوس) لكون أخلاقياته التي طرحها إرثًا حضاريًا إنسانيًا للأمم كافة؛ فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحقّ بها، فقال:

فإذا ظفرت بما تودُّ وحان عودك للسكنْ

فاجلب لصحبك ما يسرُّ سوى حديثك ذي الشجن
خير الهدايا حكمة شرقية لذوي الفطن
فاقبس لنا من نار (كنفوشي) شعاعًا قدَ لمن
كي نستضيء به ونطردَ عن معالمنا الوسن
وامحُ الطلاسم بالعزائم من مساحير الزمن (18)

لقد تمثل الشاعر عريضة في قصيدته هذه الآخر الإيجابي وقدّم صورة الصيني الشرقي العريق والحكيم العظيم، وكرّر فيها مقولة **(كلنا في الشرق همّ)** في قوله:

اذهب إلى الشرق القصيّ وعج على مثوى
العظام
واسجد أمام قبورهم وألقِ التحية باحترام!
عن إخوة لهم ثَووا في شرقنا بين الحطام
درسوا الحياة فأدركوا أن الحياة لكالمنام
وأقرئهم من شرقنا الأدنى إلى الأقصى السلام
شرقين قد قسموهما وكلاهما أبدًا يضامْ (19)

كما استحضر هذه الشخصية محمد الفراتي في قصيدته " حكمة صينية " بمن كان يُوصف بفيلسوف الصين وحكيمها بل قائدها أيضًا، وحاول أن يستنبط من قصّة يحكيها عنه حكمة يجدر بها أن تكون ترياقًا للواقع المرير الذي تعيشه الأقطار العربية آنئذ، فقال:

أجدّك هل تعنيك حكمة ناصح — لها تشرق الدنيا وينشرح الصدر
فذي حكمة صينية بعد حقبةٍ — من الدهر عن حبر رواها لنا حبر
أتت عن حكيم الصين بل فيلسوفها — فتى العدل (كنفشيوس) من علمه بحر
وكان بـ (لو) فاضطر من سوء حالها — إلى هجرها، والمرء يزعجه الهجر
فبارحها يبغي (تشي) ورحابها — فصادفه في سيره مسلك وعر
ولاح (كنفشيوس) والركب سائر — بظلّ شجيرات لدى ربوة قبر
ومن حول ذاك القبر تقول ثاكل — وتذري دموعًا مثلما انهمر القطر
قضى عجبًا مما رأى وتزاحمت — على ذهنه الآراء وانحبس الفكر
وأرسل (كنفشيوس) خير صحابه — ليستنبئ الثكلى فينفعه الخبر
أجل صدقت (إنّ الحكومة إنْ تجرْ — ينزّه كثيرًا عن توحّشها النمر (20)

إنّ نداء الإنسانية لا بدّ أن يبقى على مرّ السنين والعصور يتردد من أفواه الشعراء والعظماء والحكماء الذين عليهم أن يقوموا بمهمة الدعوة للتحرّر وتجسيد الحقّ وإقامة ميزان العدل في كل مكان، ورفع لواء وحدة الأمم لتسير الشعوب جنبًا إلى جنب بما يخدم البشرية ومسيرتها ودورها الحضاري.فالتراث الإنساني يحكمه الحبّ والعدل والخير، وهذا التراث منهل

ثقافي ومعرفي للأمم كلها على مرّ العصور ، فحوار الثقافات الإيجابي يعزّز النزوع الإنساني، ويقمع أصداء الحركات العنصرية التي تسعى بوعي أو من دون وعي إلى هدم صروح الحضارة الإنسانية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العرب لم يكونوا الوحيدين في الرزوح تحت حالة الانبهار المنتشر عالميًا الذي أصاب كثيرًا من مثقفيهم، فكما خضعت شعوب أخرى ودول عدّة للاستعمار، فقد أرّقتها كذلك تلك الجذوة المشتعلة لثقافة مغايرة كادت تحرق الإرث والتاريخ والحضارة التي تمتلكها هاتيك الشعوب. فالأمر ملمٌّ إذًا بمعظم أجزاء العالم، وربّما كان هذا دافعًا في بعض الأحايين للتقارب الواضح الذي لمسناه بين شعوب الشرق بعضها مع بعض.

خاتمة:

تستدعي دراسة الآخر الإيجابي النظر في مواقف الآخر السلبي، الذي كاد أن ينحصر في الغرب عمومًا وذلك في المفهوم العربي نظرًا لمواقف الغربيين الاستعمارية على مختلف المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فقد قسّموا الوطن العربي وبدّدوا منظومة العلاقات الاجتماعية العربية تبعًا لمصالحهم، وشوّهوا ما استطاعوا من معالم الثقافة العربية ولا يزالون يمارسون سياسة الإبادة لكلّ ما هو عربي. ومن هنا كانت دراسة الآخر مفيدة وضرورية لنا في هذا العصر المأزوم والمضطرب لأنها تعيننا على "**تمييز ما هو قومي أصيل وما هو أجنبي دخيل من تيارات الفكر والثقافة**" [21].

---

[1] الزركلي، خير الدين: ديوانه، ص293–294. وينظر: بديوي، أنس: صورة الآخرين في الشعر السوري، مطبعة اليمامة – حمص، 2008م، ص42–73.

[2] الحمصي، قسطاكي: مختاراته، ج1، ص85.

[3] المصدر السابق نفسه، ص96.

[4] الزركلي، خير الدين: ديوانه، ص59–61.

[5] أبو ريشة، عمر: من عمر أبو ريشة، ص102–105.

[6] مردم بك، خليل: ديوانه، ص159–160.

[7] الجبل، بدوي: ديوانه، ص449. (ماك سويني هو محافظ مدينة كورك الإيرلندية اعتقله الإنكليز بقضية وطنية فأضرب عن الطعام احتجاجًا على طغيانهم حتى وافته المنية).

[8] المصدر السابق نفسه، ص449–450.

[9] يحيى، عمر: ديوانه، ج2، ص249.

[10] المصدر السابق نفسه، ج1، ص318.

[11] جبري، شفيق: نوح العندليب، ص180–181. (أخت أندلس: كناية عن أدرنة). (أدرنة: من أمهات المدن العثمانية

في مقدونيا، وبها مقابر كثير من السلاطين العثمانية وقد انتزعها البلغار حربًا سنة 1912م).

(12) الزركلي، خير الدين: ديوانه، ص100.(فروق: من أسماء استنبول والزوراء بغداد).

(13) جبري، شفيق: نوح العندليب، ص158-159.

(14) البزم، محمد: ديوانه، ج1، ص109.

(15) الزركلي، خير الدين: ديوانه، ص159-160.

(16) التقي، أديب: ديوانه، ص101.

(17) الكلاليب، منير: من شعر الكلاليب، ص68-69.

(18) عريضة، نسيب: الأرواح الحائرة، ص115.

(19) المصدر السابق نفسه، ص116.

(20) الفراتي، محمد: ديوانه، ص30.

(21) ندا، طه: الأدب المقارن، دار النهضة العربية- بيروت، 1991، ص94. وينظر: شرابي، هشام: المثقفون العرب والغرب، عصر النهضة، 1875-1914م، دار النهار- بيروت، 1978م.

المصادر والمراجع:

- ندا، طه: الأدب المقارن، دار النهضة العربية- بيروت، 1991،
- شرابي، هشام: المثقفون العرب والغرب، عصر النهضة، 1875-1914م، دار النهار- بيروت، 1978م.
- الزركلي، خير الدين: الديوان، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1، 1980م.
- بديوي، أنس: صورة الآخرين في الشعر السوري، مطبعة اليمامة – حمص، 2008م، ص42-73.
- الحمصي الحلبي، قسطاكي: مختارات قسطاكي بك الحمصي، المطبعة المارونية – حلب، 1939 م
- أبو ريشة، عمر: الديوان، مج1، دار العودة ،ط1 – بيروت، 1971م.
- مردم بك، خليل: الديوان، مطبوعات المجمع العلمي العربي – دمشق، 1339هـ.
- الأحمد، محمد سليمان(بدوي الجبل): الديوان، دار العودة- بيروت، ط1، 1978م
- يحيى، عمر: الديوان، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ،جزآن – دمشق، 1980م.
- جبري، شفيق: نوح العندليب، مجمع اللغة العربية – دمشق، 1984 م.
- البزم، محمد: الديوان، الجزء الأول والثاني، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1961م.
- التقي، أديب: الديوان، مطبعة ابن زيدون- دمشق، 1932م.
- الكلاليب، منير: من شعر منير الكلاليب، المطبعة العمومية – دمشق، بلا.
- عريضة، نسيب: الأرواح الحائرة، جريدة الأخلاق – نيويورك، 1946م.

- الفراتي، محمد: الديوان، مطبعة بابيل أخوان – دمشق، 1931م.